البحث الخامس عشر

سليمان والطير والجن والنملة والهدهد وبلقيس وعرشها

ما قاله المفسرون في ذلك وما أقوله فيه خلافا لهم

جوابا لسؤال ورد لي من الشيخ توفيق البزرة من علماء دمشق الشام:

بتاريخ ١٣ المحرم سنة ١٣٥٥ هـ

قال تعالى في سورة النمل ١٦-٤٤: (وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء. إن هذا لهو الفضل المبين، وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون)، إلى قوله: (إني وجدت امرأة تملكهم، وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم)

قال بعض المفسرين إن معنى قوله (علمنا منطق الطير) أن سليمان عليه السلام قد علمه الله معنى أصوات الطيور التي يتفاهم بها بعضهم مع بعض، وكان يفهم من الطيور غرضها ومقصدها وإن كانت هي لا تفهم غرضه ومقصده. وقال بعضهم أن الله تعالى قد علم الطيور أن تكلم سليمان فتفهم غرضه ومقصده مهما كان دقيقا، معجزة له، كما علم سليمان أن يفهم منها غرضها ومقصدها كذلك على نحو ما وقت له مع الهدهد من السؤال والجواب والمناقش في القصة الآتية.

ما أقول في معرفة سليمان منطق الطير

أقول أن تفاهم الإنسان مع الحيوان مطلقا قد أصبح الآن صنعة تعليمية، لا معجزة خصوصية، كما يحصل الآن بين كثير من الناس مع كثير من الحيوانات التي يلاعبونها ويستخدمونها في كثير من الأمور بحيث يفهم كل طرف من الطرفين غرض الآخر ومقصده وذلك كالقرود وحمام الزاجل والخيول والكلاب خصوصا كلاب الأثر مما لا يتسع هذا المقام لتفصيله ومما يصرح به قوله تعالى (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) وقوله تعالى هنا (قالت نملة يا أيها النمل إلخ..)

وإنني الآن أذكر هنا حكاية عن الخيول رأيتها في أحدى المجلات. وهي أن رجل أمريكيا اسمه (لويس) قد لازم الخيل وعاش معها وآكلها ست سنوات منذ العاشرة من عمره حتى صارت رائحته كرائحتها، وأحلامه كأحلامها وكان يلكمها ويحادثها ويستمتع برائحتها وأصواتها ومنظرها ومداعبتها. وكان يذهب إلى معارض سباق الخيول وكان كلما مر به حصان نظر إليه نظرة المتسائل فيلتفت إليه الحصان ويتلع عنقه، ويرد إليه نظرة ثم يهمهم له فيفهم منه أنه قوي سيسبق، أو ضعيف سيتأخر، وكان يخبر بذلك الحاضرين فيظهر صدقه بعد نهاية السباق. وفي بعض المسابقات كانت خيول الشوط ثمانية فكلم لويس ستة منهم وهم راكضون فردوا عليه بجمجمتهم فسأله بعض الحاضرين عما قاله هؤلاء الخيول. فقال أن الجواد رقم واحد يقول أنه يتلهف على السبق غلا أن راكبه لا يحسن الركوب، والجواد رقم (٢) يقول أنه لا يمكن أن يربح لمرض في رجله، والجواد رقم (٣) يقول: أنه ثائر كالنار المشتعلة وأنه مستعد أن يسبق كل الجياد، والجواد رقم (٤) يقول أنه لا يهمه أن يفوز أو يخسر، والجواد رقم (٥) يقول أن ظهره يؤلمه أشد الألم، والجواد رقم (٦) يقول أنه يشعر أنه في حالة جيدة، غير أنه يعلم آسفا أن الجواد رقم (٣) سيتغلب عليه. وبالفعل لقد فاز على الجميع الجواد رقم (٣) بمسافة طويلة، أما الجواد رقم (٢)فقد نكص وما وصل النهاية إلا وهو يعرج، وأما الجواد رقم (٥) فتخاذل وضعف حتى تأخر) انتهى.

وقد ذكر صاحب المجلة حوادث أخرى من هذا القبيل عن لويس هذا لا حاجة لذكرها هنا.

وبالجملة فغن مكالمة الحيوانات والطيور ليست من المعجزات وإنما هي بالتعليم كما يصرح بذلك قوله تعالى (علمنا منطق الطير) أي تعلمناه تعلما.

ثم أنه لا يبعد أن يكن للحيوانات نفوس ناطقة تفهم دقائق الأمور كما يظهر ذلك في كلاب الأثر والنحل والنمل، كما يدل على ذلك أعمالهم الغريبة وكما يشعر بذلك القرآن والحديث وإن كانت مداركهم أقل من مدارك الإنسان.

ولكن المحققين على انه ليس للحيوانات نفوسا ناطقة بحيث تقدر على الاستدلال والاستنتاج وفهم دقائق الأمور التي تتعلق بالإنسان حتى يمكنها أن تتناظر معه وتناقشه وتسأله وتجيب كما في ظاهر حكاية الهدهد مع سليمان. وسيأتي أني أفسر آيات الهدهد بغير ما يقوله المفسرون.

ويحتمل أن يكون قوله (علمنا منطق الطير) كناية عن كثرة العلم والحكمة وفصاحة المنطق كما يقال فلان يناغي الطيور أي يعلم دقائق الأمور حتى ما تنطق به الطيور. ولذلك عطف الله عليها عطف تفسير قوله (وأوتينا من كل شيء) فتكون هذه الآية الثانية مفسرة لأولى، مبينة المراد منها.

ما قاله المفسرون. وما أقوله في معنى حشر الجنود

لسليمان من الجن والإنس والطير

ثم قال تعالى (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون). قال المفسرون: كان يوضع لسليمان ثلاثمائة ألف كرسي فيجلس مؤمني الإنس مما يليه ومؤمني الجن من رواءهم ثم يأمر الطير فتظله، ثم يأمر الريح فتحمله فيمرون على السنبلة فلا يحركونها، وكان معسكره مائة فرسخ خمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير وكان له بساط من ذهب، وابريسم فرسخا في فرسخ، ومنبره في وسطه من ذهب فيصعد عليه وحوله ألف كرسي من ذهب وفضة فتقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس وحولهم الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر على غير ذلك من الأقاويل التي ليس لها أي مستند من الأسانيد لا من القرآن ولا من غيرها إلا القال والقيل مما لا يليق أن يفسر به القرآن الحكيم.وأنا أقول أن لفظ الإنس جزء من لفظ الإنسان، فكذلك معناه يحتمل أن يكون قسما من معنى الإنسان أيضا، والقسم الآخر منه هو الجن، فالمراد من الإنس كما في كتب اللغة هو ما يؤنس به، ويسكن إليه القلب ولا ينفر منه بحيث يكون أمر باطنه كظاهره مرئيا معروفا مبصرا، ومن هذا المعنى قوله تعالى (إني آنست نارا) أي رأيت وأبصرت نارا، وأما الجن فهو في اللغة ما اختفى أمرهم واستتر كأصحاب الجاسوسية وذوي الأعمال الدقيقة الخفية لأنه مأخوذ من (جن) إذا اختفى واستتر، ومنه (الجنين) لأنه مختفي في بطن أمه، ومنه المجنون لأن عقله اختفى، ومنه (الجنة) لأن أرضها استترت بالأزهار والأشجار والزرع. وبالجملة فإن الإنس صنف من الإنسان وهم أهل الأنس وذووا الأعمال الظاهرة، والجن صنف آخر منه وهم أهل الخفاء وذووا الأعمال المستورة الدقيقة. ولا أعني بذلك أن الجن لا يكونون إلا من الإنسان ولكني أعني أنهم قد يكونون من الإنسان كما هنا، وقد يكونون من غيره كما في آيات أخرى. والطير هو ما يطير على جناح السرعة والمراد به هنا أصحاب البريد وأرباب المراسلات السريعة التي تلزم للجيش.

والمعنى أنه حشر لسليمان جميع أصناف جنوده اللازمة في الحرب من انس محاربين ومن جن يعملون الأعمال الجاسوسية الخفية ونحوها من سائر الأعمال الدقيقة اللازمة للحرب وغيرها. كما قال تعالى في سورة سبأ (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) وكما يعمل بعض الحذاق من العمال لبعض الدول العظام من المخترعات الحربية الحديثة وغيرها بصورة سرية خفية في نفق وسراديب في جوف الأرض لئلا يعلم بها باقي الدول الأخرى فيعملون مثلها.

وحشر لسليمان الطير أي الذين يسرعون جدا كالطير في إيصال المراسلات السريعة إلى أربابها أي ولو كانوا طيورا حقيقية كالحمام الزاجل الذي يستخدمه كثير من الدول الآن في إيصال الرسائل فلا مانع أن الهدهد كان واسطة في إيصال الرسائل بين سليمان وبلقيس أو بينه وبين سفيره أو جاسوسه في مملكة سبأ كما سيأتي.

وقوله (فهم يوزعون) أي أن كل صنف منهم قد أصبح يهتم ويدير الأمر الذي نيط به كما هو في القاموس وغيره من كتب اللغة من أن (وزع) كما أنه يأتي بمعنى منع وحبس فانه يأتي أيضا بمعنى (دبر أمر الجيش).

ما قاله المفسرون في أمر النملة مع سليمان وجنوده

وما أقوله في ذلك

ثم قال تعالى: (حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها) قال المفسرون أن النملة قد عرفت سليمان وكلمته كلاما حقيقيا بصوت مرتفع حتى سمعه سليمان وكانت المسافة بينه وبينها ثلاثة أميال. وقالوا أيضا أنه طلبها وتحادث معها ووعظته بعظات كثيرة لا حاجة لذكرها هنا مما يستبعد حصولها حقيقة كل عاقل إذ النملة وغيرها من سائر الحيوانات ليس لها قوة عقلية ناطقة يمكنها أن تفهم مقاصد الإنسان وأغراضه وأعماله وأقواله حتى تتحدث معه فيها وتجيبه عليها لأن إدراكها قاصر على ما يلزم لها في مقومات حياتها، فأين مداركها من مدارك الإنسان حتى تتكلم معه حقيقة وتناقشه، وتسأله، وتجيبه، وتعظه، بل تعظ أنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ولذلك فإني أقول يحتمل أن يكون معنى هذه الآية أن النمل كان سائرا ومتجها في الجهة التي فيها جيش سليمان، فلما رأى النمل هذا الجيش الكثير الذي إذا مر عليه داسه وحطمه فقد رجع إلى مساكنه وهذا أمر مشاهد من كل حيوان سواء كان نملا أو غيره، فإن الله تعالى قد أعطى كل حيوان إدراكا يتقي به ما يضره ويتحذر به من كل ما يؤذيه.

فلما رأى سليمان أن النمل حينما شاهر الجيش متجها نحوه رجع إلى مساكنه تبسم ضاحكا من لسان حال رئيسة النمل القائلة لباقي النمل حسب ما يتفاهمون مع بعضهم بعضا (ارجعوا إلى مساكنكم) فتبسم سليمان إنما كان من رؤية عمل هذا النمل الذي يدل على شدة حذرهم وكثرة حرصهم، واتقاءهم للشر قبل أن يقع مما لا يقدر عليه كثير من الحيوانات الأخرى. وإطلاق القول على غير الكلام اللفظي كثير في القرآن كقوله تعالى (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك) إذ أن الشيطان إنما يوسوس وسوسة ولا يقول كلاما لفظياً.

ويحتمل أن تكون هذه الآية جارية مجرى العظة والتمثيل من إجراء الكلام على لسان الحيوانات أو الطيور ليتعظ بها الإنسان الذي يجب أن يكون أحذر منها بسبب ما رزقه الله من العقل الكامل بالنسبة إليها، وأن يكون ذلك تنبيها لسليمان في سفره هذا بأن يتجنب فيه طرق المهالك، وأن يتحذر فيه من المخاطر كما تجنب وتحذر منها هذا النمل الذي وجده في طريقه، فتكون عظة النمل لسليمان إنما هي عظة بلسان الحال. ومما يدل على أن ما قلته في هذين التفسيري هو المراد من هذه الآية قول سليمان بعدها (وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي) أي بتنبيهك إياي وتحذيري من المخاطر بإلهامك هذا النمل في طريقي أن يعمل هذا العمل لأتذكر به ما يجب أن أتحذر منه وليدلني أن جيشي سيكون ظافرا، وإن من يعارضه يكون كهذا النمل مدبرا. ومما يدل على ذلك أيضا قوله بعدها (وان أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) فإن هاتين الآيتين يكون لهما موقع حسن على تفسيرنا ولكن تفسير المفسرين لا يكون لهما أي مناسبة لما قبلهما ولذلك تحير المفسرون في ربط هذه الآيات بعضها مع بعض.

ما قاله المفسرون في شأن الطير والهدهد مع سليمان

وما أقوله في ذلك

ثم قال تعالى: (وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين). قال المفسرون أن سليمان تفقد الطير ليظله من حر الشمس في سفره وبحث عن الهدهد لأنه يرى الماء في باطن الأرض فينفعه من هذا السفر. أقول ولكني بعد هذا أن الهدهد لا يرى الفخ المدفون له في ظاهر الأرض، فكيف يرى ما في باطنها العميق؟ وان الملك العظيم كسليمان لا يعجزه أن يعمل مظلة له من الشمس بدلا من الطير، وقالوا في معنى (لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه) أي لأعذبنه بنتف ريشه وقيل بحبسه في القفص وقيل بالتفريق بينه وبين الفه، وقيل بجمعه مع غير جنسه

وقيل بخدمته |أقرانه أو لأعدمنه الحياة بالمرة بذبحه، وقالوا في معنى (أو ليأتيني بسلطان مبين) أي ببرهان وحجة تبين عذره في غيابه بحيث أقتنع بها.

وأقول أن كلام المفسرين هذا إنما يقال لو كان الهدهد عاقلا مكلفا حتى يستحق العذاب عند الغياب أو الذبح عند المخالفة وحتى يمكنه أن يقيم الحجة ويبين البرهان ويقنع الخصم. ولكن ماذا نقول في حيوان أعجم لا يفهم هذا ولا يقدر عليه وليس مكلفا عند الله بشيء منه، فهل يجوز لنا أن نقول أن سليمان كان ظالماً حتى يعاقب الحيوان الأعجم، أو هل كان سليمان ساذجاً بهذه الدرجة حتى يهدد حيوانا بمثل هذه التهديدات ويتوعده بمثل هذه الوعود. إن هذا الأمر إذا أخذ على ظاهره كما يقول المفسرون لغريب جدا في بابه.

ولذلك فاني أفهم في هذه الآيات احتمالا آخر غير ما قاله المفسرون وهو أن المراد من الهدهد إنما هو إنسان له في الجيش وظيفة استحضار الأخبار وتبليغها، ولما كانت هذه وظيفته فقد أراد أن يعمل حسب ما تقتضيه هذه الوظيفة، ولكنه ذهب إلى ذلك بدون علم من سليمان فتفقده سليمان لأجل هذا العمل، فلم يجده فتهدده وتوعده بالعذاب أو بإعدامه الحياة بالمرة أو ليأتيه بحجة وبرهان تبين عذره في غيابه ويقتنع بها سليمان. وإنما سمى صاحب هذه الوظيفة بالهدهد تشبيها له به لما في الهدهد من الخصائص والصفات التي تناسب هذه الوظيفة، حيث أن الهدهد كما هو مذكور في كتاب (حياة الحيوان) له خاصية الحفظ والوفاء والود والطاعة التامة، وانه مكني بابى الأخبار، وأن من وضع لسانه تحت لسان نفسه قضيت حاجته، وأن من حمل ريشه غلب خصمه وظفر منه بما يريد وهكذا من الخواص والصفات التي أوجبت تسمية صاحب وظيفة استحضار الأخبار بالهدهد وتشبيهه به.

ويحتمل أن تكون مكالمة سليمان مع الهدهد تمثيلا أي من باب ضرب المثل في مكالمة الطيور، والكتب المقدسة كلها طافحة بضرب الأمثال في ذلك ونحوه قال تعالى (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) وقال أيضاً (ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل) وقال (وقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) وقال (ويضرب الله الأمثال للناس) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي فتفيد أن القرآن كثيرا ما يتكلم بالأشياء ويريد منها أن تكون مثلاً لا حقيقة.

ثم قال تعالى: (فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لام تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين). قال المفسرون أن الهدهد قد أحاط حقيقة علما ومعرفة بما لم يحط به سليمان وقالوا أن في ذلك تنبيها لسليمان بأن الله تعالى قد أوجد في أدنى خلقه من أحاط علما بما لم يحط به سليمان مع فضل نبوته وكثرة علومه وحكمته حتى لا يعجب سليمان بنفسه ولا ينكر على غيره، فيكون ذلك لطفا من الله بسليمان عليه السلام.

أقول يا للعجب من هؤلاء المفسرين، كيف جاز لهم أن يجعلوا الحيوان الأعجم أعلم من سليمان الذي هو ملك من الملوك وبني من الأنبياء في أمور تتعلق بأحوال الملك ككون سبأ تملكها امرأة، وأن لها عرشا عظيما وبأمور تتعلق بصفات النبوة ككون عبادة الله الذي يخرج الخبيئة في السموات والأرض أولى من عبادة الشمس التي زينها الشيطان للناس إلى غير ذلك من الأشياء المذكورة في هذه الآية، والتي لا يمكن أن يدركها ويفهمها إلا عقلاء الناس وفضلاءهم فضلا عن عامتهم وبسطائهم، فضلا عن الحيوانات العجمى. وكيف يمكن أن يقال أن الهدهد قد علم ذلك كله وأن سليمان الملك النبي ما كان يعلمه مع قرب مملكته لمملكة بلقيس، وكيف أن هذا الحيوان قد فهم هذه الأمور كلها، وكيف أداها لسليمان، وبأي صورة بلغها إليه، وقد اتبع المفسرون في ذلك حرفية الألفاظ ومشوا على ظاهرها وتركوا الحقائق والمعاني العالية والمقاصد والمرامي البعيدة التي يشير إليها القرآن الحكيم، ولو طالعت ما قالوه في هذا الباب، لرأيت العجاب، وما يحير الألباب.

ما قاله المفسرون في عرش بلقيس وفي أقوال الهدهد

وما أقوله في ذلك

ثم قال تعالى حكاية عن الهدهد (إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيءٍ ولها عرشٌ عظيمٌ) قال المفسرون ان هذا العرش سرير من ذهب وقوائمه من جوهر ولؤلؤ، وصفحتاه مرصعتان بالياقوت والزبرجد، حسن الصنعة، غالي الثمن، وإنه كان

ثلاثين ذراعا في ثلاثين، وكان طوله في السماء ثلاثين ذراعا، وقيل كان طوله ثمانين وارتفاعه ثمانين، وكان فيه سبعة بيوت كل بيت له باب مغلق إلى آخر ما قالوه في وصف هذا السرير وكبره وحسن صنعه.

وأنا أقول يحتمل أن المراد من العرش هنا هو عرش المملكة أي نفس المملكة لأنها تسمى عرشا كما يقال (اعتلى فلان على عرش المملكة) أي صار ملكا عليها، وان جلس على سرير. والمراد من عرش المملكة كل ما عليه هذه المملكة من سائر الأحوال الشامل لدين هذه المملكة وعبادتها كما سيأتي بيانه مع بيان أن الآيات القرآنية الواردة في هذا الموضوع إنما تنطبق على العرش بهذا المعنى الذي ذكرناه لا على العرش الذي ذكره المفسرون.

ثم قال تعالى حكاية عن الهدهد (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، و زين لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يخرج الحب في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم).

أقول أن الهدهد بمعناه الحقيقي الذي يقول به المفسرون هل يمكن أن يفهم دين مملكة سبأ كما هو صريح هذه الآية ودين قومها، وأنهم يسجدون للشمس من دون الله، و أن ذلك إنما كان بتزيين الشيطان لهم أعمالهم وأنه صدهم عن السبيل، وأنهم لا يهتدون، وهل يعرف معنى التوبيخ، ويقدر على إقامة الحجة والبرهان، بأن العبادة يجب أن تكون لمن يخرج الخبىء في السموات والأرض ولمن يعلم السر والإعلان، لا للشمس ولا للشيطان، وهل الهدهد أكثر علما وأعظم تفكيرا من كثير من الناس الذين يعبدون غير الله حتى الآن. فإذا كان هذا الهدهد كذلك فهو إذن إنسان عاقل ورجل كامل فاضل، وحينئذ فما هو المانع أن يراد به هنا إنسان مؤمن موظف للمراسلات السريعة من طرف سليمان، مشبه بالهدهد في صفاته وخصاله، كما قدمنا. وعليه فإن هذه الآية تشير إلى شيئين.

١- أن المراد من الهدهد إنسان مشبه بالهدهد.
٢- أن المراد من العرش في قوله (ولها عرش عظيم) إنما هو عرش المملكة الشامل لدينها واعتقادها وعبادتها وسائر أحوالها، لا العرش بمعنى السرير كما يدل على ذلك قوله في نفس هذه الآية (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم). إذ أن عرش الله ليس سريرا، وإنما هو عرش الملك العام الشامل لجميع العالم. فبلقيس لها عرش عظيم، وسليمان له عرش عظيم، وكذلك باقي الملوك لهم عروش عظيمة. ولكن الله تعالى له العرش العظيم الشامل لجميع هذه العروش ولذلك ذكر عرش بلقيس في هذه الآية بصيغة النكرة الدالة على عرش واحد مفرد. وذكر عرش الله محلى (بأل) الدالة على الاستغراق وحينئذ فالمراد من عرش بلقيس المذكور في الآية الأولى هو ما يكون من جنس العرش المذكور في الآية الثانية، والعرش في الآية الثانية ليس سريرا، بل ملكا، فكذلك عرش بلقيس ليس المراد به السرير بل الملك.

كتاب سليمان إلى بلقيس مع الهدهد

وما قاله المفسرون وما أقوله في ذلك

ثم قال تعالى حكاية عن سليمان مخاطبا للهدهد (قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم، فانظر ماذا يرجعون، قالت يا أيها الملأ إني ألقى إلي كتاب كريم، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلو علي وأتوني مسلمين).

قال المفسرون إن الهدهد حمل الكتاب وذهب به إلى سبأ فوجد بلقيس نائمة في قصرها، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وقيل بين ثدييها، وقيل نقرها فانتبهت فزعة، وقيل أتاها والقادة والجنود حولها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها، فألقى الكتاب في حجرها. وقيل كانت في البيت كوة تقع الشمس فيها كل يوم، إذا نظرت إليها سجدت، فجاء الهدهد فسدها بجناحيه فرأت ذلك وقامت إليه فألقى الكتاب. إلى غير ذلك من الأقاويل التي وإن كانت ممكنة في حد ذاتها كما تفعله الدول الآن من إرسال الرسائل بواسطة الحمام الزاجل. إلا أن هذا التفسير بعيد من حيث مخاطبة سليمان للهدهد بقوله (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) الذي يدل على أن المراد من الهدهد إنما هو إنسان يصلح أن يوصف بالصدق والكذب، ويصلح أن يكون كلامه موضعا للنظر والتفكر فيه، وقابلا للتعقيب والتنقيب عن صحته وفساده، وأما قوله (اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم) فإن التعبير فيه بالإلقاء لا يدل على أن حامل الكتاب كان طيرا

حقيقيا لاحتمال أن يكون ذلك لأجل كونه من أعلى وهو سليمان إلى أقل منه وهي بلقيس كما يقال ألقى السلطان إلى الوالي كذا وكذا، وقوله (ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون) دليل أيضا على أن حامل الكتاب إنما هو إنسان يمكن أن يتعلم الآداب ويمكن أن ينظر ويفهم ماذا يصنعون عند أخذهم الكتاب.

والحاصل أن هناك احتمالين : الأول أن يكون المراد من الهدهد إنسانا فيه صفات الهدهد وأن ذلك تمثيل كما مر. والثاني أن يكون هدهدا حقيقيا ولكن ليس هو المتكلم حقيقة بما ذكر عنه بل المتكلم به هو الكتاب الذي يحمله أي أن سفيرا مثلا لسليمان كان في مملكة سبأ، وكان قد أرسل له كتابا فيه كل ما مر ذكره ولكنه نسب إلى الهدهد لأنه هو الحامل لهذا الكتاب الآتي من إنسان عاقل كسفير أو جاسوس لسليمان هناك. كما أرسل سليمان كتابا مع هذا الهدهد إلى بلقيس.

وقوله: (قالت يا أيها الملأ إني ألقى إلي كتاب إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلو علي وأتوني مسلمين). قال المفسرون، المعنى أن الكتاب مصدر بلفظ (بسم الله الرحمن الرحيم).

وأنا أقول إن كلام المفسرين هنا منقوض بما لا حاجة للإطالة في بيانه ولذلك فإني أفهم في هذه الآية فهما آخر وهو أن المعنى أن هذا الكتاب مرسل من سليمان ومرسل باسم الله أي على اسم الله حيث يدعونا فيه سليمان إلى الإيمان بالله وتوحيده والسجود إليه وأن نترك السجود للشمس وهذا كما يقال أن الوالي فعل كذا باسم السلطان وبأمره، وتفسير الآية بهذا المعنى أعظم وأجسم وأوفق بمعنى الآية من تفسيرها بكون الكتاب كان مصدرا (بالبسملة) كما يقول المفسرون، وقوله (قالت يا أيها الملا أفتوني في أمري) إلى قوله تعالى (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) هو كلام ظاهر لا يحتاج إلى بيان.

عرش بلقيس وإحضاره إلى سليمان بواسطة الجن

قبل أن يقوم من مقامه أو قبل أن يرتد إليه طرفه

وما قاله المفسرون وما أقول في ذلك

ثم قال تعالى: (قال يا أيها الملأ أيكم يأتني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقرا عنده، قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما شكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم).

قال المفسرون أن بلقيس لما علمت أن لا طاقة لها بقتال سليمان لأنه نبي ورسول جهزت نفسها للمسير إليه وجعلت عرشها أي سريرها في آخر سبعة بيوت بعضها في جوف بعض في آخر قصر من قصورها، وغلقت الأبواب ووكلت به حرسا يحفظونه، وتوجهت إلى سليمان في أقيالها وأتباعهم، وأرسلت إلى سليمان أني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك، وما تدعو إليه من دينك، فلما كانت على فرسخ من سليمان قال سليمان أيكم يأتيني بعرشها من مكانه قبل أن يأتوني مسلمين أي منقادين خاضعين. واختلف في غرض سليمان من إحضار ذلك العرش فقيل ليظهر لها قدرة الله الدالة على صدق نبوته، وقيل لأجل أن يختبر قوة عقلها هل تعرف سريرها بعد تنكيره أم لا، وقيل لأجل أن يستحوذ عليه لعظم قيمته قبل إسلامها حيث لا يحل له امتلاكه بعد إسلامها. وقالوا أن العفريت من الجن هو الخبيث المارد من الجان واسمه صخر، وقيل ذكوان وانه قال (أنا آتيك به قبل أن تقوم (حقيقة) من مجلسك هذا. وقالوا أن الكتاب في قوله (وقال الذي عنده علم من الكتاب) هو اللوح المحفوظ أو كتاب الأنبياء، وإن القائل العالم بالكتاب هو آصف ابن برخيا وإنه أتى به قبل أن يرتد (حقيقة) إليه طرفه أي بصره إلى آخر ما قاله المفسرين من كلام لا يكاد أن يكون معقولا أصلا مما لا حاجة للإطالة في بيان ضعفه.

وأنا أقول أن قوله تعالى (إرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) صريح تمام الصراحة في أن سليمان هو الذي قد ذهب إليه بجنود لا قبل لهم بها وإنه أخرجهم من ديارهم بعد وصوله إليها وهذا عكس ما قاله المفسرون من أن بلقيس هي التي ذهبت إلى سليمان. فياليت شعري من أين فهموا عكس ما تدل عليه هذه الآية، فإن كانوا قد فهموه من قوله تعالى (أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين) فهذا لا يدل على أنه لم يذهب إليهم لاحتمال أنه قال ذلك

الكلام بعد وصوله إلى ديارهم، وقبل أن يأتوه مسلمين منقادين على أن قوله (قبل أن يأتوني مسلمين) متأخر في الذكر عن قوله (فلنأتينهم إلخ..) فهل كانت الآية الثانية ناسخة للأولى أو مناقضة لها، وهل هناك سبب يدعوهم إلى القول بعكس ما يدل عليه القرآن إلا القيل والقال عن وهب ابن منبه وعند عبد الله بن شداد، وعبد الله ابن سلام. ونحوهم وهل يجوز لهم أن يجعلوا الكلام الذي لا سند له ولا دليل عليه مقدما على صريح القرآن الحكيم.إن هذا والله لشيء عجاب.

وأقول أيضا أن العفريت من الجن يحتمل أن يراد به الرجل المقتدر على الأعمال عجيبة بأسباب دقيقة خفية، وإن الكتاب في قوله (علم من الكتاب) المراد به كتاب الوجود ولوح الكون وما جريات الأمور وسنن الله في الخلف أي كتاب الحقيقة وليس المراد به اللوح المحفوظ أو كتاب من كتب الأنبياء كما يقول المفسرون. ولو كان آصف ابن برخيا يعلم ذلك لكان سليمان أولى منه بهذا العلم لأنه نبي. وإن قوله (قبل أن تقوم من مقامك) كناية عن شدة السرعة وإن قوله (قبل أن يرتد إليك طرفك) كناية عن ما هو أسرع من الأول وليس المراد المعنى الحر في الحقيقي لذلك، ونظيره في القرآن قوله تعالى النحل ٧٧ (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) إذ أن الساعة ليست كلمح البصر حقيقة فالمراد في الجميع كثرة السرعة والمعنى حينئذ أن سليمان بعد أن وصل بجنوده إلى مملكة بلقيس وخيم حولها وبعد أن عرف أن بلقيس حينما شاهدت هذه الجيوش لا بد وأن تسلم هي وجنودها. وأن يأتوا إليه منقادين خاضعين بلا حرب، قال للملأ من قومه (أيكم تأتيني بعرشها) أي أيكم يأخذ مملكتها منها بالحرب والقوة قبل أن تسلم إلينا حتى أكون صادقا فيما بلغته إليها حينما أرسلت لها الكتاب بأني لا بد من أن أخرجهم من ديارهم أذلة وهم صاغرون. غذ لو أتوا إلينا منقادين بلا حرب لا نكون قد حققنا وعيدنا لهم من إخراجهم أذلة. لأنه يوجد فرق كبير لنا بين حكم البلاد إذا أخذناها بالحرب وبين حكمها إذا أخذناها بالسلم. فقال عفريت من الجن أي قائد من قواده المقتدرين الذين يعملون الأعمال الحربية الغريبة، أنا آتيك به، أي أنا أحاربهم وأغلبهم وآخذ ملكهم واستلم عرشهم قبل أن تقوم من مقامك أي في مدة يسيرة لا يظن أن أحدا غيري يمكنه أن يفعل ذلك فقال الذي عنده علم من الكتاب أي احذق قائد من قواده الذين له علم واختبار بما جريات الحرب ودقائقه، وله تجارب عديدة عرف بها كيف يتمكن من التغلب على الأعداء بغاية ما يمكن من السرعة. قال أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك أي في مدة أقل جدا من المدة التي يمكن للقائد الأول أن يأتيك به فيها وبالفعل قد حصل ذلك وأخذ بلادها بالحرب والقوة وحقق قوله لهم على لسان رسوله (لنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرين) (فما رآه مستقرا عنده) أي لما رأى مملكة بلقيس وعرشها قد أصبح في حوزته وتحت تصرفه، ومستقرا عنده قال (هذا من فضل ربي) فالتعبير عن ذلك بالاستقرار مبالغة في شدة التمكن من هذه المملكة كأنها متاع وضع بين يديه لأنه أخذ بالقوة والحرب وما أخذ بالقوة يكون أقوى في الاستقرار مما أخذ بالسلم الذي قد يكون فيه نوع من الحيلة والمخادعة والذي يجعل للمغلوبين حق التدخل في الإدارة والأحكام.

ويحتمل أن يراد بعرشها هودجها التي ركبت فيه أثناء الحرب لأن العرش في اللغة يطلع على هودج المرآة وعلى كل مسقف كالعريش كما هو صريح كتب اللغة، وحيث أن هذا العرش أي الهودج كان موجودا معها في مكان الحرب القريب من مكان سليمان فلا غرابة من كون أحد حذاق القواد يأتي به بسرعة من هذا المكان القريب.

معنى تنكير العرش لبلقيس لمعرفة أتهتدي أم لا

وما قاله المفسرون وما أقوله في ذلك

ثم قال تعالى (قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون). قال المفسرون أي اجعلوا العرش أي السرير منكرا مغيرا لئلا تعرفه إذ لو بقي على حالته لعرفته، ولما أمكن امتحان قوة عقلها بذلك وكان غرض سليمان أن يعرف ثبات عقلها لأجل أن يتزوجها حيث أن الناس قد طعنوا في عقلها وقالوا لسليمان أنها ناقصة العقل. انتهى ملخص كلام المفسرين.

وأنا أقول أن هذا الكلام بعيد جدا إذ على فرض صحة ذلك فإن تنكير العرش لا يخلو إما أن يكون بتبديل قوائمه وبعض أجزاءه أو بتبديل شكله وهيئته. فإن كان الأول فلا يكون هو نفسه عرش بلقيس، وإن كان الثاني فلا يمكن أن تصل البلاهة والغفلة بملكة من الملوك ألا تعرف سريرها وهو بنفس أجزاءه إذا تغيرت هيئته وشكله فقط.وعلى كل حال فإن كلاما كهذا لا يليق أن تفسر به آيات القرآن الحكيم.

ولهذا فإني أقول المراد من عرشها عرش المملكة ومعنى (نكروا لها عرشها) أي بينوا لها مناكره واظهروا لها معايبه أي افهموها ما يستنكر من هذا العرش القائم على عبادة الشمس لعلها تهتدي إلى الله تعالى فالمراد من التنكير هنا تبيين منكرات الشيء أي بينوا لها الأمور المستنكرة في مملكتها كعبادة الشمس والسجود إليها وترك عبادة الله بحيث تجعلوه منكرا في أعينها ببيان بطلانه وبالإقناع والحجة (ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون) أي لننظر بعد ذلك البيان والإقناع هل تهتدي إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده وعبادته أم تكون من الذين لا يهتدون ببقاءها على حالتها الأولى وعدم إصغاءها للنصائح وعدم رجوعها عن تلك المناكر، فالتنكير معناه هنا الاستنكار أي بيان أن هذا الشيء منكر.

ومما يؤيد تفسير هذا قوله تعالى في الآية التي بعدها (وصدها ما كانت تعبد من دون الله، إنها كانت من قوم كافرين) فإنها صريحة فيما نقول بعيدة كل البعد عما يقول المفسرون، إذ أي مناسبة وأي علاقة بين كونها كافرة مصدودة عن الإيمان بالله بسبب كونها تعبد غيره ولين تغير شكل سريرها، ثم معرفتها له بعد تغييره أو عدم معرفته. اللهم ارزقنا هداية نفهم بها كلامك الحكيم. وأيضا على تفسيرنا يظهر معنى واضح لقوله تعالى (ننر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون) لأن معنى الهداية له مناسبة قوية بعبادة الله، وعدم عبادة الشمس ولكن لا مناسبة قوية لها بتعرفها على سرير أو عدم تعرفها عليه.

ثم قال تعالى: (فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين). أقول يحتمل أن يكون معنى قوله (أهكذا عرشك) أي أن عرشك ومملكتك هو كما وصفنا لك من الصفات والمناكر التي فيه أم لا. فقالت كأنه هو أي كأنه هو الموصوف وهذا مثل أن تصف لزيد إنسانا بصفات يعرفها ثم تقول أهكذا هو فيقول لك كأنه هو أي كان الموصوف هو أو كأنه هو الموصوف.

وأول دليل على صحة تفسيرنا وبعد تفسير المفسرين قوله تعالى في نفس هذه الآية: (وأوتينا العلم من قبلها، وكنا مسلمين)، اذ أي مناسبة وأي ارتباط بين كون سليمان يفتخر بأنه أوتي العلم من قبل بلقيس وأنه كان مسلما مؤمنا، وبين كون سريرها هكذا أو لم يكن هكذا، ولكن هناك مناسبة كبيرة، وارتباط قوي بين افتخار سليمان بكونه أوتي العلم من قبلها وأنه كان مسلما وبين كون بلقيس ومملكتها تعبد الشمس وتسجد إلهيا من دون الله تعالى. ويحتمل أن يكون المراد أنه لما جاءت أتوا لها بخريطة مملكتها وقالوا لها أهكذا عرشك ومملكتك أي على هذه الصورة وطبق هذه الخريطة قالت كأنه كذلك وهذا الاحتمال يناسب أيضا قول سليمان (وأوتينا العلم من قبلها) أي أوتينا علم مملكتها وصفتها ومقدارها وعدد بلدانها من قبل أن تأتي هي هنا فنعرف ذلك منها.

ثم قال تعالى: (وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين) أي صدها عن عبادة الله التي يدعوها إليها سليمان ومنعها من الإصغاء إليه ما كانت عليه من عبادة غير الله تعالى أي أن العادة التي ألغتها ودرجت عليها منعتها من التفكر في الأمر في عبادة الله حيث أنها كانت من قوم كافرين أي فظهر أنها من الذين لا يهتدون المذكور في قوله تعالى قبلها (ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون) وحينئذ فالاهتداء في الآية وعدمه متعلق بالإيمان والكفر وبعبادة الله وعدمها لا بمعرفة أن هذا سريرها أم لا كما يقول المفسرون. فهذه الآية من جملة الأدلة على قرب تفسيرنا وبعد تفسيرهم كما قدمنا.

الصرح الممرد واللجة وكشف الساق

وما قاله المفسرون وما أقوله في ذلك

ثم قال تعالى (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، وقال أنه صرح ممرد من قوارير قالت ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين).

قال المفسرون الصرح هو القصر وذلك أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها أن يبني له في طريقها قصر من زجاج كالماء بياضا ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره، ووضع سريره في صدره فجلس عليه، وعكف عليه الإنس والجن والطير. وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لأمره وبالنظر لكون الجن قد كرهوا أن يتزوجها لئلا تفضي إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنية، وخافوا أيضا أن يولد له منها ولد فتجمع فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك أشد ولذلك قالوا إلى سليمان أن في عقلها نقصا، وأنها شعراء الساقين ورجلها كحافر حمار. فاختبر سليمان عقلها بتنكير سريرها واتخذ الصرح

ليعرف ساقها. ومعلوم من حال الزجاج الصافي أنه يكون كالماء فلما أبصرته ظنته ماء راكدا، فكشفت عن ساقيها لتخوضه فإذا هي أحسن الناس ساقا وقدما، وقيل أنه وجدها شعراء فدعى الإنس وقال لهم ما يذهب هذا قالوا له المواسى. فكره سليمان استعمال المواسى ثم دعا الجن فقالوا له مثل ذلك ثم دعى الشياطين فوضعوا له النورة أي الزرنيخ ليذهب الشعر وقالوا في قوله تعالى (رب إني ظلمت نفسي) أي أنها عجبت مما رأته وقالت إني ظلمت نفسي بظني السوء بسليمان حيث توهمت أنه يريد إغراقي في اللجة. وقالوا في قوله (وأسلمت لله رب العالمين) أن هذا تجديد لإسلامها على أتم وجه باعترافها بألوهيته تعالى لجميع العالمين. انتهى ملخص كلامهم.

أقول أن هذا الكلام لا يليق (أولا) أن يفسر به كتاب الله تعالى. و(ثانيا) لا يليق بسليمان أن ينزل بعقله وملكه ونبوته إلى ما في هذه الحكاية من أمور طفيفة سخيفة. (ثالثا) أن هذه الآيات على تفسيرهم لا تكون متلائمة مع بعضها إذ لا مناسبة ولا ارتباط بين إسلام بلقيس لله تعالى وإيمانها به وترك عبادة الشمس، وبين حوادث هذه الحكاية التي لا يستجوب شيء فيها ترك دينها التي كانت عليه. وحينئذ فالأحسن أن تفسر هذه الآيات بأمور دينية وبراهين عقلية تستوجب إسلامها لله، وعبادته دون عبادة الشمس.

ولذلك فغني أقول في معنى قوله تعالى (قيل لها ادخلي الصرح) أي صرح الدين الإلهي، وإنما سمي صرحا لأن الصرح ف اللغة هو البناء الشامخ العالي الواسع العظيم ولما كان دين الله كذلك فقد شبه بالصرح لتمام المشابهة بينهما في ذلك. أي ادخلي في دين الله تعالى الذي هو في القوة والمتانة كالصرح وابحثي فيه بحثا دقيقا لتعلمي وتتحققي أنه حق أم باطل، فكشفت عن ساقيها أي شمرت عن ساقيها واجتهدت واستعدت لأجل البحث والنظر والمجادلة، فكشفت الساق والتشمير عنه المشعر بالاستعداد للجري والقفز إنما هو كناية عن الاستعداد إلى البحث والنظر والقفز من حالة إلى حالة أخرى. فما رأته ونظرت فيه حسبته لجة أي بحرا خضما يستوجب كثرة المناظرة، ويستلزم شدة الجدال.

قال لها سليمان: (إنه صرح ممرد من قوارير)، أي إنه دين صفي ناعم ملس، سهل، لطيف، واضح، ظاهر، نير، كأنه زجاج، لا يحجب ما وراءه ولا يحتاج إلى مناظرة وجدال، ولا إلى بحث ونضال، ولا على منازعة وشقاق، ولا إلى تشمير ساق.وحينما تحقق ذلك بالأدلة الظاهرة والبراهين النيرة. (قالت رب إني ظلمت نفسي) بما كنت عليه من عبادة غيرك (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) أي آمنت بك كما آمن سليمان حيث ظهر لي أنك رب العالمين جميعا بما فيهم الشمس وغيرها مما يعبد من دونك. فأنت وحدك الذي يستحق العبادة والخضوع والسجود. هذا ما أراه وأفهمه في تفسير هذه الآيات، وهذا التفسير أليق بكتاب الله تعالى وأحسن بكثير من تفسير المفسرين لوجوه:-

١. لأن هذه الآيات على تفسيرنا تكون منسجمة المعنى متناسقة مربوطا بعضها ببعض من أول هذه القصة إلى آخرها بخلافه على تفسير المفسرين فإنك تجد أن معنى آية منها في الشرق، ومعنى الآية الأخرى في الغرب كأنه لا ارتباط بينهما في المعنى ولا اتصال. ولذلك فإن المفسرين لم يتكلموا قط في بيان ارتباط هذه الآيات بعضها مع بعض لأنهم وجدوها على تفسيرهم غير قابلة للارتباط والتناسب.
٢. لأن القرآن الكريم إنما يقص القصص لأجل أن يعتبر الناس بها في أمورهم ويتعظوا منها في دينهم، ويعلموا مثلها. ولكن إذا كانت أحاجي وألغازا وأمورا خارجة عن طور العقل، فكيف يمكن الاتعاظ والاعتبار بها، وجعلها مثلا ومبدأ للناس يمشون عليه في اعتقاداتهم وأعمالهم، وحينئذ فتفسير القصة بما هو معقول ومقبول يكون أوفى بالغرض المقصود من القصة من تفسيرها بالأحاجي والألغاز والمعاني التي لا تكاد تفهم ولا تعقل.
٣. لأن القرآن هو أبلغ كلام وأفصحه، فلو عبر عن هذه القصة وغيرها بالألفاظ العادية التي لا استعارة فيها ولا كناية، ولا تشبيه ولا تمثيل لا يكون فيها شيء من البلاغة والفصاحة ولا من الرونق والبهجة ولكن التعبير عنها بمثل هذه الألفاظ المجازية التي تستلفت النظر والفكر، وتشغل العقل واللب يكون أوقع في النفس وأشهى للتفكر والنظر، وأوسع مجالا للعقل وأبلغ وأفصح في الكلام، وعلى كل حال فالله أعلم بمراده.